قراءة فى كتاب (9)

غزة حافظوا على إنسانيتكم

بيان الشيخ
مركز رؤية للتنمية السياسية

مركز رؤية للتنمية السياسية

2017

العنوان: غزة حافظوا على إنسانيتكم

السلسلة: قراءة فى كتاب (9)

الكاتب: **بيان الشيخ**

الشهر/ السنة : تموز /2017

جميع الحقوق محفوظة لمركز رؤية للتنمية السياسية © 2017

_____

يسعى مركز رؤية للتنمية السياسية أن يكون مرجعية مختصة في قضايا التنمية السياسية وصناعة القرار، ومساهماً في تعزيز قيم الديمقراطية والتعددية والاعتدال والتسامح. ويسعى المركز إلى تنمية القدرات والإمكانيات السياسية لدى الأفراد والجماعات والأحزاب في المنطقة، بما يخدم بناء مجتمعات ودول مدنية وديمقراطية قائمة على مبادئ حق تقرير المصير والحرية، بما يساعد على نبذ العنف والتطرف، والمساهمة في إنجاز الشعوب لحقوقها السياسية والمدنية لاسيما الشعب الفلسطيني.

ويهدف المركز إلى مساعدة الكفاءات العلمية والبحثية في مجال العلوم الإنسانية في تطوير مهاراتها و وتنميتها، وتوفير الدعم السياسي والأكاديمي للفلسطينيين، ورعاية الطاقات الثقافية، وتنمية المهارات السياسية لدى الشباب. ويسعى إلى فهم قضايا المجتمع المدني، وتمكين المرأة من خلال أدوات البحث العلمي في الحقول الاجتماعية والإنسانية والسياسية.

Vision Center for Political Development

İkitelli Organize San. Bölgesi Mah. Hürriyet Bulvarı Enkoop Sanayi Sitesi No:70/33

Başakşehir / Istanbul.

Tel: +90 2126310107

www.vision-pd.org/

قدّم الكتاب "إيلان بابيه"، وذكر في مقدمة الكتاب؛ نبذة تاريخية عن إعداد الاحتلال الإسرائيلي للحرب على قطاع غزة وحركة حماس منذ سنة 2004؛ ببناء نموذج لمدينة عربية في صحراء النقب بأعلى إمكانيات وتكاليف؛ لتكون محل تدريب لجيش الاحتلال، وما حدث من تصعيد للعمليات العسكرية ضد القطاع عقب هزيمة تلك الجيوش في جنوب لبنان في صيف 2006، فقد بدأت سياسة الإبادة الجماعية بشكل جدّي منذ الشهر الأول من عام 2007، كما تحدث إيلان عن تلك التبريرات والأكاذيب المطلقة التي قدّمها الاحتلال لمواطنيه ومن ثم الى الرأي العام العالمي عن ذلك العدوان.

كما وجه الكاتب فيتوريو أريغوني كلمة إلى قارئ الكتاب باستخدامه شعار "حافظوا على إنسانيتكم" الذي يوقع به ما يكتبه لجريدة "إل مانيفستو"، وما يدونه على مُدوّنته بأنها دعوة لكفّ الأعمال الإجرامية التي يقوم بها الاحتلال بشأن الجنس البشري بغض النظر عن الفروقات العرقية والدينية، كما أن هذا الشعار هو عنوان هذا الكتاب الذي سجل فيه بصفته شاهد عيان قصة المذبحة التي استمرت ثلاثة أسابيع، فهذا يقع ضمن واجبه بصفته ناشطًا -أو بشكل أعم لأنه إنسان- لتوثيق ونشر الحقيقة من أجل الحرية والعدالة ومن أجل الغد ومن أجل أن تحافظوا على إنسانيتكم.

يبدأ فيتوريو في المشهد الأول بالحديث عن جمال غزة بإطلالتها على البحر، ولكن سرعان ما ينفتح الجحيم حسب تعبيره في 27 كانون الأول/ ديسمبر 2008، فقد دوى صوت سقوط القنابل وارتفعت أعداد الضحايا واكتظ مشفى الشفاء -مشفى المدينة الرئيس- بجثث الضحايا الملقاة في فنائه، وتعدّت الجرائم لتصل إلى المدارس والأسواق القاطنة بجوار مركز وأكاديمية الشرطة المستهدفة من قِبل الاحتلال.

ويروي فيتوريو كيف امتلأ أسفلت الطرقات بجداول من الدماء لضحايا كان أغلبهم شُبانًا أعمارهم 18 و20 عامًا؛ ينتسبون إلى قوات الشرطة ولا ذنب لهم سوى أنهم مسؤولون عن الأمن الداخلي لغزة؛ ولم يُطلقوا طلقة واحدة ضد الاحتلال.

فيما لم يتورع الاحتلال الإسرائيلي عن إطلاق تهديداته بأن ما حصل حتى الآن هو مجرد اليوم الأول من حملة القصف التي قد تستمر لأسبوعين؛ على مرأى ومسمع من العالم

(المتحضر) الصامت ليصمّ الآذان أكثر عن أصوات الانفجارات التي تغطي المدينة ككفن من الموت والإرهاب. ويختتم فيتوريو المشهد بمقولته "حافظوا على إنسانيتكم".

الموت ببطء

ينتقل فيتوريو لمشهد آخر بعنوان **الموت ببطء في أثناء إصغاء السمع من دون جدوى** في 28 كانون الأول/ديسمبر 2008 فليس في القطاع ملاجئ مضادة للقنابل وبالتالي فليس هناك مكان آمن، كما كادت أن تنقطع خطوط الاتصالات من كثرة الضغط عليها.

ومع استمرار القصف والعدوان الإسرائيلي الغاشم على غزة فقد عبّر فيتوريو عنه بأنه "تحويل للمستشفيات والمشارح الفلسطينية إلى مصانع للملائكة تنتج ملائكة عبر خط إنتاج يعمل من دون توقف"، وفي ذلك الوقت كان من المقرر وصول السفن الأربع التابعة لحركة غزَّة الحرة كي تغادر ميناء لارنكا في قبرص مُحمّلة بطاقم طبي وثلاثة أطنان من الأدوية، إلا أنه حال دون وصولها اعتراض 11 سفينة حربية إسرائيلية لها على بعد 90 ميلاً بحريًا من غزة؛ في المياه الدولية وقد صدمتها السفن الحربية الإسرائيلية ثلاث مرات مسببة خللاً في عمل المحرك وتسربًا في الهيكل، مما دفع الطاقم والركاب بعد نجاتهم إلى إرساء المركب في ميناء صور في جنوب لبنان لقيامهم بمحاولة أخرى عبر نقلهم الأدوية من المركب المتضرر المسمى "بالكرامة" لمركب آخر متوجه مباشرة نحو القطاع.

في خضم الكلام وصف فيتوريو نفسه بأنه شخص مسالم وليس من دعاة العنف حتى لو كان من طرف السلطات الفلسطينية ضد "إسرائيل"، لكنه عبّر عن شدة غضبه واستيائه لتلك الأقوال المأثورة التي تقول إن هذه المذبحة هي ردّ فعل إسرائيليّ على إطلاق الفلسطينيين لتلك الصواريخ المتواضعة المصنوعة محليًا، فقد حدد على وجه الدقة أنه منذ عام 2002 حتى وقت كتابته لتلك المذكرات لم تقتل صواريخ القسام التي أطلقت على "إسرائيل" سوى 18 شخصًا فقط، بينما أحصيت في غضون ساعتين من ذلك القصف أكثر من 250 قتيلاً من المدنيين في مستشفيات غزة.

تناول فيتوريو الحديث عن يوم آخر 3 كانون الثاني/ يناير 2009 فيه بدأ الدخول البري للاحتلال مخيم جباليا متابعًا السير نحو شمال قطاع غزة؛ يسحق بدباباته كل ما يأتي في طريقه، ثم يعبّر فيتوريو عن شعوره بالاشمئزاز جراء فتح الاحتلال معبر إيريتس لخروج الأجانب من القطاع في حين مُنع دخول الأطباء والممرضين وبعض أدوات الإغاثة، ورغم إتاحة الفرصة له بالخروج من القطاع إلا أنه أصر على البقاء شاهد عيان على الجرائم التي تُقترف بحق مدنيين عزل من السلاح.

في مشهد آخر يرويه فيتوريو عن كم المناظر البشعة والمروّعة.. قصف للمساجد حتى وصل العدد لـ 15, قصف المدارس والجامعات والأسواق والمشافي، جثث القتلى المجروحة بفعل الشظايا، أشلاء القتلى المنثورة في كل حدب وصوب، الجماجم المفتوحة وكرة العين المتدلية خارج محجريهما، ولم يُستثن من ذلك الأطفال والرضع الذين لم تتوقف صرخاتهم وبكاؤهم من شدة الألم؛ فضلاً عن إصابتهم بالأمراض العقلية نتاج الرعب من القصف المتواصل، حتى وصل الحد إلى استهداف سيارات الإسعاف؛ ذلك الأمل لإنقاذ هؤلاء الضحايا الأبرياء. ويختتم فيتوريو المشهد كالعادة "حافظوا على إنسانيتكم".

غزة المنكوبة

يوصف فيتوريو ما حدث في غزة بـ "**النكبة**" لتشابُهها إلى حد كبير بما حدث في نكبة 1948، ويكأنه نوع جديد من التطهير العرقي ضد الفلسطينين، ثم ذكر فيتوريو كيف كان الاحتلال حريصًا على طمس الحقيقة وألا يصل إلى العالم بشاعة ما يفعل بقصفه بناية في مركز غزة يعمل فيها العديد من وكالات الأنباء المحلية والأجنبية بإحدى المروحيات الإسرائيلية التي أطلقت سبعة صواريخ عليها، وأنه كان متعمِدًا ذلك بدليل عدم وجود أهداف إستراتيجية أو مقاومين مقاتلين بجوار البناية التي يُعتقد أنها محل استهداف من قبل الاحتلال، مُبررًا أمام العالم أفعاله بأنه يقصد حماس "الإرهابية" فقط !

كما وصف فيتوريو لقطة تدل على اللامعقولية في هذا المكان، وهي رمي مجموعة من الزُقاقيين الحجارة بواسطة مقاليعهم نحو السماء على عدو بعيد لا يمكنهم الوصول

إليه، في مقابل إمطار العدو لهم بقنابل عُرف فيما بعد أنها غير تقليدية ومحرّمة دوليًا (القنابل العنقودية والفوسفور الأبيض)، ومما جعلهم يعتقدون باستخدام الاحتلال لتلك القنابل تأكيد الأطباء عدم رؤيتهم لتلك الإصابات من قبل، فالكسور التي أصيبت بها الجماجم جميعها تُظهر علامات اصطدام قوة هائلة مواجهة للوجه، ويحصي فيتوريو عدد الضحايا والجرحى في كل يوم في حين لم يزد عدد قتلى الاحتلال عن أربعة.

يروي فيتوريو في هذا المشهد ما سجلته زميلته في حركة التضامن الدولية حينما طلبت من مجموعة أطفال تدوين انطباعتهم عن تلك الجرائم، وكيف خلَّفت مشاهد الرعب بالغ الأثر في نظرات أطفال غزة البريئة والنقية، بل وكيف وضعت نساء حوامل أطفالهن قبل ميعادهن، فصرخات المواليد الجدد كانت الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يطغى على أصوات انفجار القنابل، كما تناول فيتوريو أيضًا كيف كانت الأنفاق السبيلَ الوحيد للفلسطينيين كي يستمروا على قيد الحياة نتيجة الحصار، فالأغذية و الماشية والبضائع الاستهلاكية علاوة على المعدات الطبيّة والأدوية تصل من مصر عن طريقها، هذه الأنفاق ذاتها لم تتوقف "إسرائيل" عن قصفها بشكل عنيف مُدمرة آلاف المنازل في رفح قرب الحدود. "حافظوا على إنسانيتكم"

ويستمر فيتوريو في سرد الإجرام الذي قام به الاحتلال عبر إعطائه لجيشه أوامر باستهداف سيارات الإسعاف بزعمه أنها وسيلة يستخدمها الإرهاب للنقل والحركة، حتى صدر تقرير من قِبل رئيس منظمة الصليب الأحمر يفيد عدم استطاعة سيارات الإسعاف الدخول إلى موقع مجزرة حي الزيتون إلا بعد 24 ساعة من الهجوم الإسرائيلي، بالإضافة إلى إفادة عمّال الإسعاف بدموية المشهد ورعبه. كما أعلن مدير عمليات الأونروا تعليق النشاطات الإنسانية في القطاع إثر مقتل اثنين من العاملين لديها أثناء إعلان الاحتلال وقفه لإطلاق النار لمدة ثلاث ساعات؛ يقول فيتوريو "المدنيون في غزة لديهم ثلاث ساعات يوميًا بتصرفهم كي يبقوا على قيد الحياة، بينما لدى الإسرائيليين الإحدى والعشرون ساعة المتبقية ليحاولوا فيها إبادتهم".

يحكي فيتوريو ساخرًا عن نوع من المجاملة أبدته القوة الجوية الإسرائيلية في إلقائها قصاصات ورقية محذرةً فيها أهالي الأحياء وتدعوهم فيه لمغادرتها بدعوى قيام عمليات إرهابية ضد "إسرائيل".

من تلك المناطق، بل طلبت منهم أيضاً الإبلاغ عن أولئك الذين يقومون بتلك العمليات مهددين إياهم بأنهم المسؤولون عما سيحدث لهم. باختصار، يلصق الإسرائيليون على كل باب عبارة "**العمل جارٍ على قدم وساق**" على حد تعبيره.

يقول فيتوريو إن البحر قد يكون مرساة الأمل أو جزءًا من مخطط عمل للتدمير، ففي الوقت نفسه الذي يُبحر فيه من لارنكا في قبرص مركب (روح الإنسانية) وهو واحد من أربعة مراكب تابعة لحركة غزة الحرة مُحملاً بأطنان من المساعدات الطبية مُصطحبًا أطباء وممرضيين وصحافيين وأعضاء في البرلمان الأوروبي ونشطاء حقوق إنسان ممثلين لـ17 بلدًا مختلفًا؛ ترددت أنباء عن شحن الولايات المتحدة الأمريكية سفينة أسلحة وكميات ضخمة من المتفجرات وصمامات التفجير إلى "إسرائيل" لأجل تدمير آلاف المنازل على رؤوس ساكنيها.

ويستمر فيتوريو في إحصاء عدد الضحايا والجرحى في تلك اللحظات مع ثبات عدد قتلى الاحتلال عند أربعة أشخاص، كما يستمر في سرد معاناة الصحفيين والمصورين واستهداف أماكن وجودهم على وجه الخصوص حتى أدرج الجيش الإسرائيلي حركة التضامن الدولية على قائمة المستهدفين بزعم تبعيتها لحركة حماس وعلى رأس المستهدفين كان فيتوريو أريغوني كاتب هذه المذاكرات.

دوائر جحيم جباليا

يروي فيتوريو تحت عنوان **دوائر جحيم جباليا** جانبًا آخر من تلك المعاناة التي يعيشها أهالي جباليا، ومنها تلك التقنية الإرهابية التي يستخدمها الجيش الإسرائيلي بإلقاء قنبلة حتى يصل إليها المُسعفون فيقوم إثرها بإلقاء قنبلة أخرى على الجرحى والناس الذين هُرعوا لتقديم المساعدة.

ثم انتقل فيتوريو إلى الحديث عن إشكالية مهمة وهي "الدفاع عن النفس" فهناك من يرون أن حماس تتحمل المسؤولية الكاملة عن هذه الإبادة الجماعية وعن خرق الهدنة بين فلسطين و"إسرائيل"، فيرد فيتوريو مُدللاً بموقف الأمم المتحدة من القضية على لسان

ريتشارد فولك بقوله "في الحقيقة كانت إسرائيل هي من خرق وقف إطلاق النار في تشرين الثاني/ نوفمبر عبر، ما يمكننا وصفه بشكل جزئي، إبادة 17 فلسطينيًا"، مع تسجيل ملاحظة عدم سقوط أي ضحية من جانب الاحتلال في هذا الشهر ولا قبله.

انقلاب الجغرافيا رأسًا على عقب"

كما اختار فيتوريو عنوان "**انقلاب الجغرافيا رأسًا على عقب**" عقب انسحاب الدبابات الإسرائيلية بعد 48 ساعة من الحصار مُخلّفة وراءها حفرًا وتلالاً مترامية من الأنقاض، فما التقطته الأقمار الصناعية لغزة قبل عشرين يومًا لا يُمكن التُخيل بأن له صلة بما التُقط عقب الهجوم المروع عليها، كما دوّن رفقاء فيتوريو في حركة التضامن الدولية بصفتهم شهود عيان العديد من القصص المرعبة المُدعّمة ببيانات.

ينقل فيتوريو معاناة أهالى القطاع التي لا تنقطع أحياء كانوا أم أمواتًا، فما زالت جبال الأنقاض في غزة تلفِظُ الجثث التي في جوفها إلى السطح، وما زال الأحياء يعانون النقص الحاد في كل متطلبات الحياة من مأكل ومشرب وكهرباء علاوة على المأوى.

ويروي فيتوريو ما بَلَغَه من نية الاتحاد الأوروبي تجميد التمويل الذي خُصِّص لإعادة بناء غزة طالما بقيت محكومة من حماس، وقد فسر الفلسطينيون الغزّيون ذلك بأنه إمّا دعوة لحرب أهلية أو القيام بانقلاب، بالإضافة إلى أنه إعطاء شرعية لقتل 410 أطفال بسبب دعم أهلهم لحكومة حماس المنتخبة ديمقراطيًا في انتخابات حرة.

أراد فيتوريو أن يتحقق من مخابئ التطرف الإسلامي الإستراتيجية المزعومة؛ فتوجه إلى جبل الدردور شمالي القطاع لكونه من أكثر الأماكن تعرَّضًا للقذف فلم يجد إلا منازل سُوّيت بالأرض وأهالي يفترشون التراب، في حين لم يجد أي ترسانة عسكرية مدمرة أو ما شابهها، لقد سحقت الجرافات الإسرائيلية أشجار الزيتون وبساتينه كما يروي أحدهم، إلا أن الاحتلال وعلى الرغم من ذلك نجح في توحيد صفوف الشعب المنقسم، فقد قاتل ذوو اللحى من مقاتلي ألوية عز الدين القسام الذراع العسكرية لحماس جنبًا إلى جنب مع الفدائيين الماركسيين ذوي اللحى الرياضية من مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومقاتلي شهداء الأقصى الذراع العسكرية لحركة فتح على حد قوله.

"ما الذي رأته دموعها"

هي قصة رواها فيتوريو أخبرته بها "نعيمة" الفتاة العمياء حين هدد جنود جيش الاحتلال أهل قريتها بإخلاء منازلهم قبل اقتحام القرية؛ وآثرت هي البقاء حتى لا تُبطئ هربهم، وما أخبره به أحمد عن ركل الأطفال بقايا الفوسفور الأبيض المتناثر فيُعاد اشتعاله مرة أخرى، فقد لوحظت قابلية اشتعال تلك القنابل عند اهتزازها حتى ولو بعد عدة أيام من انفجارها، كما قال أحد الأطباء: "عواقب كل تلك الأشياء التي ألقيت علينا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية سوف تظهر إلى السطح مرة أخرى في المستقبل القريب عبر حالات جديدة من مرض السرطان والمواليد المشوَّهين".

مرت ستة أشهر على انتهاء الغزو الإسرائيلي الذي عُرف بـ "الرصاص المصبوب" وما زالت **بؤرة الكارثة مستمرة** كما وصفها فيتوريو، فقد حال الحصار الدائم الذي فرضته تل أبيب برًا وبحرًا وجوًا دون وصول معظم المساعدات إلى القطاع، وعلى رأسها المواد الضرورية لإعادة البناء والإعمار كالأسمنت بزعم أنها ستُستخدم لإعادة بناء الأنفاق في رفح، والحديد بزعم استخدامه في صناعة صورايخ القسام المحلية، أضف إلى ذلك منعها لائحة لانهائية من المنتجات الضرورية للحياة اليومية. أمّا المواد المسموح إدخالها إلى القطاع فلا يتعدى عددها 40 سلعة تجارية بالمقارنة مع 4000 سلعة كان دخولها مسموحًا به قبل فرض الحصار.

أمّا **جرائم الحرب في غزة** فقد بَرِأ منها الجيش الإسرائيلي عقب امتثاله لخمسة محققين داخليين، على النّقيض رفضت منظمة العفو الدولية (أمنِستي) هذه الادعاءات لافتقارها المصداقية، وأوضحت أن "إسرائيل" فشلت "بإجراء تحقيق مناسب في تصرفات قواتها في غزة بما في ذلك جرائم الحرب"، ورفضت التعاون مع بعثة الأمم المتحدة المستقلة لتقصّي الحقائق. وقد أورد فيتوريو تفاصيل تقرير منظمة أمنستي مما لا يسعنا ذكرها هنا.

كما ألقت منظمة هيومان رايتس ووتش الضوءَ على جرائم الحرب الإسرائيلية في تقريرها، حتى داخل "إسرائيل" اتهمت المنظمات الحقوقية ولا سيما "منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان" عملية الرصاص المصبوب بانتهاكها القانون الدولي لحقوق الإنسان كما ذكر فيتوريو، كما رفضت "إسرائيل" التعاون مع لجنة تقصي الحقائق التي شكّلها مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة والتي يرأسها "ريتشارد غولدستون".

اختتم فيتوريو الحديث عن معاناة أهالي قطاع غزة جراء الحصار الإجرامي المفروض عليهم من الاحتلال، ومن صور تلك المعاناة:

- استمرار قصف الأنفاق.
- قنص المزارعين على طول الحدود: فقد أعلنت "إسرائيل" عن إقامة منطقة أمنية عازلة بعرض كيلومتر خلف حدودها مع قطاع غزة يحذر الدخول إليها، كما أضرمت النار في الحقول المزروعة بالحنطة والشعير، ذلك المصدر الوحيد لمعيشة العائلات.
- استهداف مراكب الصيد البدائية: كنوع من أنواع العقاب الجماعي فرضته "إسرائيل" عند الإبحار أكثر من ثلاثة أميال في عرض البحر.

وكان عنوان الختام "**فليجيئوا إلى غزة**" هو إعادة صياغة لخطاب اقترحته المُدوّنة الإيطالية "سبيغاجليا" عن خطاب مشهور ألقاه "كيندي" يُناسب الحصار المفروض على غزة:

هناك العديد من الناس حول العالم ممن لا يستطيعون فهم أو يدّعون أنهم يفهمون ما هي المشكلة بين فلسطين و"إسرائيل". فليجيئوا إلى غزة.

البعض يقولون إن "إسرائيل" هي قوة المستقبل. فليجيئوا إلى غزة.

يدّعي آخرون، في أوروبا وفي أماكن أخرى، أنه يمكننا أن نتعاون مع الإسرائيليين. فليجيئوا إلى غزة.

حتى أنه يوجد القليلون ممن يقولون: صحيح إن "إسرائيل" هي شر، لكنها تسمح بتحقيق تقدم اقتصادي. فليجيئوا إلى غزة.

*أورد فيتوريو في نهاية الكتاب تسلسلاً زمنيًا للأحداث الخاصة بتاريخ فلسطين منذ 1948، مُرفقة بمُذكرة توثيقية عن أشهر المصطلحات الخاصة بالقضية الفلسطينية.

معلومات الكتاب

العنوان: غزة حافظوا على إنسانيتكم

المؤلف: فيتوريو أريغوني، تقديم: إيلان بابيه

ترجمة: مالك ونوس

عرض: بيان الشيخ

الناشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الدوحة.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى: يوليو 2013.

عدد الصفحات: 160